obeikandl.com

2

بين يدي هذا الكتاب

obeikandl.com

كل الذين اقتربوا من سيرة عبد الله النديم وفكره وجهاده يجدون أنفسهم أمام نموذج متفرد في كثير من الصفات، والكفاءات، والعطاءات:

* فهو شاعر شعبي عملاق.

* وهو محاور- بالشعر والنثر- على البديهة- وأمام الجماهير- لم يهزم في يوم من الأيام.

* ومدافع عن اللغة العربية الفصحى، بوعي حضاري أصولي ومعاصر ومستقبلي، رفع شعار: (التفريط في اللغة إضاعة للذات).

* وهو خطيب مفوه، عشقته الجماهير والنخبة- وخاصة إبان الثورة العرابية- على نحو منقطع النظير. حتى إنه عندما كان يتولى تقديم خطباء المهرجانات الشعبية كان يقدم كل خطيب بخطبة، ويودع كل خطيب بخطبة، والجماهير لا تمل سماعه أبدًا، وهو في ذلك لا يكرر نفسه أبدًا!.

* وهو ملحمة من ملاحم النضال الوطني ضد الاستعمار، في القرن الذي شهد ذروة الزحف الاستعماري العربي على بلاد الشرق والإسلام. ولقد مثلت سنوات اختفائه من سلطات الاحتلال أسطرًا تنتظر من يقدمها رواية عظيمة وفيلمًا عالميًّا!.

obeikandl.com

* وهو صحفي، ارتاد ميدان الصحافة الثورية في الشرق، حتى لقد كان يصدر صحيفته- إبان الثورة العرابية- من ميادين القتال ضد الغزاة الإنجليز. وكأنها منشور ثوري يجيش الوطنية والمواطنين ضد الاحتلال.

* وهو واحد من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد، الذين تتلمذوا على يدي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والذين سعوا إلى تجديد الفكر الإسلامي لتتجدد به حياة المسلمين.

* وهو قمة شامخة من قمم الوعي العميق بضرورة تنمية الانتماء- انتماء شعوب الشرق- إلى الوطنية، والقومية- الجنسية- والرابطة الشرقية، وحضارة الإسلام.

نعم، لقد كان القديم كل ذلك، وأكثر من ذلك، فحياته وفكره وجهاده (ديوان) ينتظر من يحوله إلى نموذج تتعلم منه الأجيال.

* وفوق كل هذا الذي أشرنا إليه، فإن القارئ لدراسة النديم التي كتبها عن سنن التقدم والتخلف، والتي أجاب بها عن سؤال: (بم تقدم الأوروبيون وتأخرنا.. والخلق واحد؟) سيكتشف في النديم أبعاداً جديدة فوق التي أشرنا إليها، سيكتشف فيه فيلسوفًا في فقه الحضارات، وفي السياسات الدولية، وفي الوعي بالتاريخ، وصناعة التاريخ، كما سيكتشف فيه الرائد الذي ارتاد ميدان الإجابة على ذلك السؤال الذي أرق عقول الشرقيين وضمائرهم عندما

رأوا تراجع الدولة العثمانية- الدولة الإسلامية الجامعة، واجتياح الإمبريالية الغربية لأقطار الشرق الإسلامي، وغواية النموذج الحضاري الغربي لقطاع من النخبة والصفوة في بلاد الإسلام، وتشكيك كثير من المستشرقين في صلاحية الإسلام كي يكون نموذجًا للتقدم والنهوض.

في ذلك المناخ، وهذه الملابسات، تقدم النديم وارتاد ميادين الإجابة- العلمية الموضوعية العميقة- على سؤال العصر- وذلك قبل أمير البيان شكيب أرسلان (1286 - 1366 هـ، 1869 - 1946م) بأربعين عامًا، وذلك ليدعو النديم أمته إلى اكتشاف حقائق وسنن التقدم والتأخر، والنهوض والتراجع والفوز والخسران، فاتحًا بذلك أبواب الأمل أمام شعوب الشرق في الانعتاق من أغلال المأزق الحضاري الذي صنعه (التخلف الذاتي الموروث) وسعت إلى تكريسه الهيمنة الغربية على بلاد الإسلام.

* لقد رصد النديم- في هذه الدراسة- أسبابًا أصلية أربعة بها تقدمت الدول الأوروبية في عصر نهضتها الحديثة:

أولها: توحيد اللغة في الدولة؛ لأن اللغة من أهم العوامل في توحيد الجنس والقومية، وبعث الحمية بين الذين يتشاركون فيها، كما أنها سبيل للمغايرة التي تمثل حاجزًا أمام اختراق الغير لحماها، والسبيل- كذلك- لجمع الشمل لاسترداد الوطن والهوية إن عدا عليهما الأعداء، وذلك فضلًا عن أنها وعاء الثقافة التي تمثل قسمات الانتماء.

وثانيهما: توحيد السلطة الحاكمة للشعب والقوم؛ لأن تفتت السلطة والدولة إنما يفتح الأبواب- وإن بالتدريج- إلى إضعاف السمات والقسمات الجامعة للجنس والقوم، ومن ثم يفتح الثغرات لعوامل التخلف والتراجع والانحطاط.

وثالثها: توحيد الجامعة الدينية؛ ولتحقيق ذلك - في التاريخ الأوروبي الحديث - رُفع شعار: (دين واحد للدولة الواحدة، وخاض الملوك والأمراء الأوروبيون حروبًا دينية أبيد فيها 40 ٪ من شعوب وسط أوروبا، وذلك لتحقيق الوحدة والانسجام الديني في كل دولة من الدول القومية الأوروبية.

ورابعها: تلك المعاهدات التي عقدتها الدول الأوروبية- بعد استكمال عوامل تقدمها- وذلك لضبط تناقضاتها القومية، ولتوجيه طاقاتها نحو استعمار بلاد الجنوب، ونهب ثرواتها، وإلحاقها بالمركز الحضاري الغربي، على أمل اجتثاث الإسلام- الهوية الشرقية الكبرى المغايرة للغرب- في نهاية المطاف.

* لقد رصد النديم- في دراسته هذه- الأسباب الموضوعية الأصلية الأربعة، التي أثمرت تقدم الأوروبيين، والتي افتقدها الشرق والشرقيون في حقبة عزلتهم وتراجعهم الحضاري، حتى لقد صارت أسباب التقدم الأوروبي هذه لغزًا لدى كثير من الشرقيين!.

وإلى جوار هذه الأسباب الأصلية الأربعة، التي أثمرت التقدم الأوروبي، رصد النديم أسبابًا فرعية ستة، دعمت هذا التقدم، وعمقت جذوره، وأطالت من عمره، وساعدته على مواجهة الطوارئ والعاديات. وهذه الأسباب الفرعية الستة هي:

1 – إطلاق حرية الفكر والكتابة؛ لتربية الأمم وتهذيبها.

2 – تجميع رؤوس الأموال في مؤسسات وشركات مساهمة، وحماية الاقتصاديات الوطنية في مواجهة المنافسة الخارجية.

3 – تشجيع التنافس والابتكارات والاختراعات في علوم التمدن المدني؛ لتطوير الواقع المعيشي.

4 – تعميم التعليم وتوحيده، وجعله إجباريًّا، وجعله تعليمًا وطنيًّا، يحافظ على الهوية القومية والحضارية.

5 – إقامة مجالس الوزراء، ومؤسسات الشورى في كل دولة من الدول؛ لمنع الاستبداد بالسلطة والطغيان.

6 – إقامة المؤسسات لأهل الفكر والعلم والثقافة، التي تمثل عقل الأمة، والتي تجمع الطاقات الفكرية، وتديم عطاء الفكر في البلاد، والتي توازن سلطات الدولة وسطوة الحكام.

* تلك هي الأسباب الأصلية والفرعية التي رصدها العقل الفلسفي

obeikandl.com

للنديم، كأسباب للتقدم الأوروبي والتي صاغها وقدمها- في دراسته هذه - ليقول لقومه: إن للتقدم سننًا وقوانين أبوابها مفتوحة أمام كل بني الإنسان، وما على الذين يريدون الانعتاق من أغلال (التخلف الموروث) ومن (الهيمنة الغربية) التي تحرس هذا التخلف الموروث إلا أن يأخذوا بالأسباب.. لا بالأوهام، أو الوقوف عند مجرد الأماني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

وبذلك نبه النديم شعوب الشرق على الخطأ الذي وقعوا فيه عندما تنكبوا طريق التقدم، وساروا في عكس اتجاهه ولم يأخذوا بأسبابه، وسقطوا في وهم: أن كلًّا من التقدم الأوروبي والتخلف الشرقي إنما هما ضربة لازبٍ ليس منهما فكاك!.

*وخلال هذه الدراسة الحضارية العميقة، فنَّد النديم المزاعم الاستشراقية التي ادَّعت أن الإسلام هو السبب في تخلف المسلمين، فهذا الإسلام هو الذي مثل السبب الأول في نهضة الشرق وأهله، حتى جعلهم (العالم الأول) على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون. (فالدين الإسلامي والأديان الشرقية لم تكن السبب في التأخر- كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا- بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه).

(1) النساء: 123

* وكذلك رد النديم مزاعم الذين قالوا إن المناخ في البلاد الشرقية هو السبب في كسل الشرقيين وقعودهم عن التقدم والنهوض، (ذلك أن الجوهر هو الذي كان فيه المتقدمون من المصريين والفينيقيين والفرس والهنود والعرب والترك، وقد تحققنا أن التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار، وبُعد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات، فإذا أطلق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة وتعميم المعارف في المدن والقرى ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتمعت كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم، أمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئًا فشيئًا حتى يضارعوها قوة وعلمًا..).

* وفي حديث النديم عن المعاهدات الدولية التي ضبطت بها الدول الأوروبية تناقضاتها وخلافاتها- فيما قبل الحروب الاستعمارية العالمية- وفي حقبة المد الاستعماري الأوروبي على الشرق، تحدث عن اجتماع الدول الأوروبية على استثمار وحدتها في غزو الشرق، فقال: (لقد اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحًا واستعمارًا..).

* وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد تحدثت عن آية المنافقين؛ فلقد تحدث النديم عن آيات النفاق الأوروبي في تعامله مع مصر والشرق، فقال: (إنه ما من مصري إلا وهو يعلم الآن أوروبا لا تصدق في قول، ولا تفي بوعد، ولا تحب شرقيًّا، ولا تسعى في خير مصري، وإنما هي ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها، يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش)!.

* وبعد أن أكد النديم على أن وحدة الدين، واللغة، والسلطة كانت في مقدمة أسباب التقدم الأوروبي، تحدث عن اجتماع كلمة الدول الاستعمارية الأوروبية على حرمان الشرق من أسباب التقدم هذه وذلك لتكريس تخلفه، وإبقائه تحت الهيمنة الأوروبية، فقال: (.. ولعلم الأوروبيون أن وحدة الدين إذا انضمت إلى وحدتي اللغة والسلطة قامت المملكة على أساس متين، اهتموا بنقل الأمم الشرقية بطريق التدرج، فهل تقهر فرنسا أهل الجزائر وتونس على ترك دينهم، كما فعلت إسبانيا مع مسلميها عند تغلبها عليهم؛ حيث ألجأتهم إلى التنصر أو الخروج من البلاد، وكذلك إنكلترا لم تكره مسلمي الهند، ولا روسيا قهرت مسلمي طرغستان والتركمان وغيرهم ممن هم في حوزتها، وإنما التزمت كل دولة أن تعمم لغتها فيهم، وأن تفتح المدارس لتعليم الأبناء على أخلاق الأمة الحاكمة، وتمنع تعلم الدين إلا مبادئ قليلة جدًّا تموه بها على ضعفاء الإدراك؛ ليخرج

المتعلمون فارغين من الدين، فيسهل نقلهم لأي دين بعد، فإن تعرضت أمة شرقية لذكر دينه ولم تكن محكومة بأمة أوروبية، نودي عليها بالتوحش والخشونة والهمجية، وقيل إن هذا تعصب ديني، مع أن التعصب الديني لا يوجد إلا في صنع أوروبا، ولكن القوة تقول للضعف ما تشاء!. لقد عملت الدول الأوروبية على إعدام اللغات الوطنية للشرقيين؛ وذلك حتى يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية. كما حجرت على المدارس تعليم بعض العلوم الشرعية، وألزمتهم بتعلم لغتها، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين؛ لئلا يعلموا أنهم يغايرون الأوروبيين دينًا فيثورون عليهم. كما عمدوا إلى نشر ما يصادر الأديان، ويوقع الشرقيين في الشك والتردد حيال العقائد الدينية، ثم تدرجوا الإماتة اللغة الوطنية، وذلك بفرض المكافآت لمن ينبغ في الإنكليزية لننسى لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا- كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شوراهم!).

* كذلك كشف النديم الغطاء عن الخداع الأوروبي الذي يدعي احترامه لأديان الشرق، فتحدث عن ارتباط التنصير الكنسي بالاستعمار (فلقد أحكمت أوروبا التأليف بين القوتين الدينية والملكية (السياسية) فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاد!. فخرج الأوروبيون من بلادهم إلى الشرق محمولين على قوتي الدين والملك).

* وحتى يتأبد الاستعمار، وتتأبد التبعية الشرقية للمركز الحضاري الغربي، سعى المستعمرون لطمس عناصر الهوية الحضارية الإسلامية، التي تحفظ مغايرة الشرقيين للغربيين، فامتد الغزو الفكري إلى الميادين القانونية والاجتماعية للشرقيين. فبعد الغزو بالقوة الخشنة يأتي الغزو بالفكر والقوة الناعمة. (ذلك أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدًا شرقيًّا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية، وتنادي أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد، ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا، فلا تقدم على العمل، بل تفعل الشيء على قبول التجربة، فإن نفذ فقد مضى، وإن عورضت فيه التزمت التأويل، كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس؛ حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم، ولما لم تجد معارضًا أخذت تحول كثيرًا من مواده إلي مواد ينكرها الإسلام؛ توسيعًا لمناطق النسخ الديني، ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه وإن لم يكن هو هو، ولم ينتطح في إصلاح مواده المخالفة عنزان)!.

* ويكشف النديم عن دور العامل الديني فيما كان يسمَّى آنذاك (بالمسألة الشرقية) والموقف الأوروبي من الدولة العثمانية- دولة الخلافة الجامعة- التي مثلت سياجًا إسلاميًّا لحماية الشرق من الغزو الأوروبي

عدة قرون. فلقد مثَّل الدين عاملًا أساسيًّا في عداء الأوروبيين لهذه الدولة العثمانية، (ذلك أنه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة، ولكن المغايرة الدينية، وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيرًا من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع. وإننا نرى كثيرًا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصير وسوء الإدارة وقسوة الحكام، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتًا، وأحسنها تبصرًا، وأقواها عزيمة، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني؛ لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية، غير دول أمريكا، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان، وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبًا أو يقرب منهم جنسًا).

* وانطلاقًا من هذا البعد الديني للهيمنة الأوروبية على الشرق- الذي تتدين أغلبيته بالعقيدة الإسلامية، وتنتمي كل شعوبه إلى الحضارة الإسلامية- سعى الأوروبيون إلى إحلال الكنائس محل المساجد في الأحياء التي بنوها والمجتمعات التي سكنوها، (فما ترى جماعة من الأوروبيين سكنوا جهة في مصر وإسكندرية أو الشام إلا وبنوا في كل حارة كنيسة. فهذه جهات الفجالة وشبرا والإسماعيلية والمطرية بها كثير من

الكنائس، وما بني فيها مسجد لمسلم، كأن المسلمين الساكنين بها ليسوا من هذه الأمة)!. فالمقاصد العليا- على الجبهة الدينية- هي (النسخ الديني وتلاشي الإسلام)- كما يقول النديم!.

* ولأن الهدف الأول للإمبريالية هو النصب الاقتصادي لثروات الشرق وخيراته؛ فلقد كان الغزو الاقتصادي الأوروبي للدولة العثمانية الطريق لاحتواء الشرق، ولذلك، وجه النديم اللوم الشديد للدولة العثمانية التي منحت الشركات الأوروبية (امتيازات المرافق الأساسية في بلادها. لقد أعطت السكك الحديدية التزامًا للأوروبيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعيتها ظاهرًا، وهم فرنساويون أو إنكليز باطنًا، مع أن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى جسم الإنسان).

وهكذا تداخل العامل الديني- الجامع بين بعض الأقليات وبين المستعمرين- مع السعي الاستعماري للسيطرة على الاقتصاد.

* ولقد أفاض النديم في الحديث عن النهب الاستعماري للاقتصاد المصري، فالجاليات الأجنبية التي زحفت على البلاد، في ظل النفوذ الأجنبي وتحت طرب الاستعمار، وفيهم المرابون والمحتكرون، وإن اختلفت جنسياتهم، وتعددت مقاصدهم إلا أنهم((قد اتحدت وجهتهم في التماس الرزق أو التدرج إلى تملك ما بيد المصريين من عقار ومزارع، واتخذت المغالبة على سلب حقوق المصري وسائل لمقاصدها، فالتاجر

التزم الغش والخيانة والكذب والخداع تمايلًا على رواج تجارته الرديئة، والمرابي اتخذ الخيانة والغدر والتزوير طريقة لنزع ما بيد المصري من أثاث وعقار، فابتدأ أمره بدراهم معدودة وانتهى بتحايله إلى قناطير منضودة، وقد التزم طرق الحيلة، فهو وطني ما لأن معه حاكم وطني وساعده على نهب الفلاح وتفليسه، وأجنبي إن ظهر غشه وغدره يحتال لسلب الفلاح بالمحاكم الأجنبية التي لا يدري الفلاح شيئًا من أصولها والمستخدم في الحكومة تعصب لجنسه فاجتهد في إبعاد المصريين عن الوظائف الأميرية ووضع وطنيّه مكانه حتى أقفل بيوتًا كثيرة وأفقر أغنياء بقطع مواد الثروة عنهم، ثم تحيز كل جنس من النزلاء في نقطة سكنًا واستيطانًا ليبعد عن المصري ويستقل مع جنسيته بخصائص المجامع التجارية والأدبية والأفكار الإدارية والدولية، واتخذ كل فريق مجمع لهو أو أنس خادعة وصاحبه ومديره من جنسيته حتى لا ينتفع المصري بشيء من الغرباء. ثم اجتمعت كلمة النزلاء على ذم المصري وتقبيح أعماله وأقواله وإظهار خفاياه إلى من يهمهم الإطلاع على عوراته التي يرونها بابًا للدخول في بلاده أو سلب ما بيده، وهذه الأعمال كانت سببًا في غرس الضغائن بين المصري وبعض نزلاء بلاده، إذ لا يتصور أن إنسانًا يتغلب على قوت إنسان ومظهره وأثاثه وعقاره، ثم يرى أنه بعد ذلك يحبه أو يحمده، فإن رأى منه ميلًا أو محبة فإن ذلك نفاق يداري به بعضهم بعضًا، ويتقي به كل منهم شر

الآخر، ولهذا ترى النزلاء لخوفهم على ما بأيديهم من التجارة والأعمال يظهرون التجنس بغير الجنسية الشرقية، ويعدون أنفسهم من الغربيين ليشتركوا معهم فيما يسمحون لهم به من الأعمال.

هكذا خدع الأوروبيون الشرقيين، ولعبوا بأفكار رجالهم، وخاتلوا عظماءهم، مقبحين لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، معلنين أن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل، لا حياة لأمم إلا بما تأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتم إليه، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه، ويتعبد بعبادته، ويتقيد بعاداته..

وهكذا تمكنت أوروبا من إدخال مصنوعها في الشرق، لتحول الثروة إليها، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون، حتى أصبح الشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها!..).

* ولقد ميز النديم بين ما في أوروبا من إنجازات حضارية- في العلم، والصناعة، ونظم الحكم- وبين ما عندهم من سلبيات وثغرات، فدعا إلى توجيه النقد للذين يقلدون أوروبا في السلبيات دون الإيجابيات، (إذ ليس من التهذيب أن نذم أوروبا ونقبح أعمال أهلها وعوائدهم، فإن لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنما نذم الذين أرادوا تقليد أوروبا فأخذوا بما عليه الغوغاء من التهالك في الخمر والمقار والفسوق، وتركوا ما عليه أرباب الأفكار ورجال المعارف من خدمة الأمة والبلاد ما فيه الصلاح والعمارية).

* ولأن الاستعمار الأوروبي، إمعانًا منه في المكر والخداع، أراد إلباس (قبضته الغربية) (قفازًا شرقيًّا) ليوقع الشرقيين في شراكه وحبائله، فلقد عمد إلى غواية قطاعات من المثقفين الشرقيين الذين صنع عقولهم وفق مناهجه والذين علمهم في مدارس إرسالياته، والذين استأجرهم ضد بني جلدتهم؛ ليكونوا أبواقًا يسوغون لمقاصده ونظرياته، وامتدادات سرطانية بين شعوب الشرق ومنظومات قيمها وقسمات هويتها الحضارية؛ لهذه الحقيقة- التي برزت في عصر النديم، والتي لا تزال بارزة حتى الآن- خاص النديم طوال حياته معركة شرسة ضد هؤلاء (المتغربين المتأوربين العملاء الأجراء)، (فشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده وإغراء الغير بهم طمعًا في ذهب يموت ويتركه فيفني ويبقي ذكره القبيح خالدًا في بطون أوراقه. ومن لنا بتوحيد وجهتنا معاشر الشرقيين وقد نبتت لحوم الأجساد في خدمة الأجنبي، فانفعلت لها الأرواح الحاملة لقواها، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية ذرت إليها، فهي قبلة مصادرها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ!، ولا يلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في الشرق. ولكن العجب من شرقي يخدم غربيًّا بسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط من ملوكه وأمرائه، فالأجنبي المحصن خير للشرقيين من هذا المحتال!. لقد كذب كل من يقول إن الاستظلال بظل الغير حياة للوطنية والمدنية. إن الذين استمالتهم أوروبا فانتموا إليها هم

أجانب منا وإن تكلموا بلغتنا وسكنوا وطننا، بل وإن دانوا بديننا، لأنهم لا يقدرون على السعي في مصالح الشرق، ولا ينطقون بكلمة فيها خير لأهله، فإنهم مقيدون بتعاليم الدول المنحازين إليها قياما بحق نعمتها عليهم).

* هكذا تحدث النديم حديث (فيلسوف الحضارة والتاريخ والنظم السياسية) عندما أجاب على سؤال العصر:

(بم تقدم الأوروبيون وتأخرنا، والخلق واحد؟!).

***

ويزيد من قيمة هذه الدراسة التي كتبها النديم ونشرها في تسعينيات القرن التاسع عشر، أنه قد فضح فيها مخططات الاستعمار وهو يعيش في قفص الاحتلال الإنجليزي لمصر، وتحت أعين العملاء والأُجراء الذين استحوذ عليهم الشيطان الاستعماري ليكونوا أبواقه وأركان إدارته الاستعمارية في بلادنا.

كما يزيد من قيمة هذه الدراسة الرائدة، مقارنتها بنظيرتها التي كتبها أمير البيان شكيب أرسلان تحت عنوان: (لماذا تأخر المسلمون.. ولماذا تقدم غيرهم؟) بعد دراسة النديم بنحو أربعين عامًا، والتي قدم لها الإمام محمد رشيد رضا (1282 – 1354 هـ، 1865 – 1935م) ونشرتها مجلة (المنار)، وطبعت بمنطقة المنار 1930م؛ ذلك أن شكيب أرسلان– وهو

أحد أئمة العصر علمًا وبيانًا- قد أجاب على سؤال العصر إجابة سريعة، بينما تميزت دراسة النديم بهذا العمق والشمول، الذي جعلها نصًّا من نصوص فلسفة الحضارة والوعي بالتاريخ وفقد الواقع والتبحر في السياسات الدولية، الأمر الذي يزكي تقديمها للباحثين والقراء، وتسليط الأضواء التي تزيح عنها غبار النسيان.

***

ويبقي- في نهاية هذه الدراسة- التساؤل عن مصير هذا التقدم الأوروبي، الذي تحدث عنه النديم، وشكيب أرسلان. هل ما يزال هذا التقدم الأوروبي قائمًا؟، أم أن الحضارة الأوروبية قد شاخت، ودخلت في مآزق بنيوية، يبدو أنها ستأخذ بناصيتها نحو الغروب؟!.

* لقد أفرزت الحضارة الأوروبية- بعد عصر النديم- الفلسفات والنظم الفاشية والنازية والماركسية، التي أفلست، وسقطت، بعد أن كلفت الإنسانية من أمرها عسرًا شديدًا.

* وأفرزت هذه الحضارة الأوروبية الفلسفة الوضعية اللا دينية، التي همشت المسيحية، وأحلت محلها التنوير والحداثة كدين طبيعي، ثم أفلس هذا التنوير وهذه الحداثة فأفضيا إلى التفكيكية والعدمية واللا إدارية التي بشرت بها ما بعد الحداثة، فأصبح الغرب- وخاصة أوروبا- فراغًا دينيًّا،

يتمدد فيه الإسلام، وغيره من عقائد الديانات الوضعية. أي أن عامل (توحيد الجامعة الدينية) الذي مثل أحد ركائز التقدم الأوروبي في عصر النديم قد انهار تمامًا، حتى لقد كتب بابا الفاتيكان (بنديكتوس السادس عشر): أنه يخشى انقراض المسيحية من أوروبا، وأن تصبح أوروبا جزءًا من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين)!.

وشاعت في أوروبا ظاهرة إغلاق الكنائس، وبيعها مطاعم وملاهي وعلب ليل، مع انتشار المساجد في ربوعها!. وها هي فرنسا- التي أعلن قادتها في الجزائر سنة 1930م- وهم يحتفلون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر- أعلنوا أن عهد الهلال قد ولى، وأقبل عهد الصليب، وأن الجزائر ستكون مهد الحضارة روحها الإنجيل. وأنهم إنما يحتفلون بتشييع جنازة الإسلام في الجزائر!.

ها هي فرنسا- أكبر بلاد الكاثوليكية- التي أعلنت ذلك سنة 1930م، لا يذهب إلى قداس كنائسها إلا أقل من 5 ٪ من السكان، بينما يصلي الجمعة في مدنها وقراها من المسلمين أكثر من ضعف الذين يذهبون إلى القداس!. وها هي إنجلترا الإنجليكانية- التي ترأس ملكتها كنيستها- تتدني نسبة من يعدون أنفسهم مسيحيين إلى 59 ٪ من السكان- بعد أن كانت 71.7 ٪ قبل عشر سنوات!. وترتفع نسبة الملحدين بين سكانها إلى ٪25 بعد أن كانت نسبتهم 14.8 ٪ من السكان قبل عشر سنوات!. ولا يحضر القداس

الأسبوعي في إنجلترا سوى مليون فقط. و10 ٪ من كنائسها قد صنفت (زائدة عن الحاجة)، ومعروضة للبيع!؛ وبسبب انهيار الأسرة، فإن نسبة مواليد المسلمين الإنجليز- وهم 5 ٪ من السكان- تتزايد بشكل ملحوظ، حتى أن اسم (محمد) قد سبق اسم (جورج) في مواليد سنة 2006م، واسم (جاك) و(هاري) في مواليد سنة 2009م!. ولقد أعلن الكرادلة هناك: (أن المسيحية أوشكت على الانحسار في بريطانيا، وأن الدين لم يعد مؤثرًا في حياة الناس)!.

إذًا، فركيزة (وحدة الجامعة الدينية) التي مثلت أحد أهم عوامل التقدم الأوروبي- الذي تحدث عنه النديم وأرسلان- قد انهار، ولم يعد جائزًا أن نتحدث الآن عن (تقدم أوروبي) في الواقع الذي نعيش نحن فيه!.

وإذا كانت الفاشية والنازية والماركسية قد سقطت سقوطها المدوي والشهير؛ فإن ليبرالية الرأسمالية الغربية المتوحشة قد دخلت- هي الأخرى- نفقًا مظلمًا لن تخرج منه سالمة بأي حال من الأحوال.

وبمناسبة هذه الأزمة المالية لهذه الليبرالية، كتبت المجلة الفرنسية- الفصلية- (التحديات Challanges)- إبان زيارة البابا لفرنسا 2008م- فقالت: (إنه في حين يمر العالم بأزمة مالية تجتاح جميع معالم النمو في طريقها، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية، ولو طبق رجال البنوك الطامعون بالمردود على الأموال الخاصة- ولو قليلا- الشريعة

الإسلامية، ومبدأها المقدس: (المال لا ينتج المال) فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه)![1].

إذًا، مع انهيار ركيزة (وحدة الجامعة الدينية)، التي قام عليها التقدم الأوروبي- في عصر النديم- لم نعد أمام (تقدم أوروبي)، وإنما أمام غروب لهذا النموذج الحضاري، الذي أصبح وكأنه سليمان- عليه السلام- الذي توفاه الله، بينما عصاه هي التي تحفظ عليه صورة الأحياء!.

وأمام هذه الحقيقة- التي لم يشهدها عصر النديم وأرسلان- يتفرد الإسلام خيارًا حضاريًّا، تظهر حلوله على الدين كله، ولو كره الكافرون!.

فقط، على المسلمين أن يفقهوا الأسباب الإسلامية التي تقدموا بواسطتها قبل أربعة عشر قرنًا؛ ليصلحوا بها حاضرهم ومستقبلهم، كما صلح بها ماضيهم. ويومئذ سنكتب الدراسات التي ستجيب على سؤال العصر- عصرنا نحن: - بم تقدم المسلمون وتأخر الغرب.. والخلق واحد؟!.

---

(1) انظر في هذه الحقائق وما ماثلها كتابنا (الغرب والإسلام: تاريخ من الغزو والتزييف وغواية الأقليات) طبعة مكتبة وهبة - القاهرة سنة 1432 هـ، سنة 2011م. وصحيفة (الأهرام) عدد 10 رجب سنة 1434 هـ، 20 مايو سنة 2013م، وكتابنا (الحل الإسلامي لأزمة الرأسمالية العالمية) ص 45، 46 طبعة دار السلام - القاهرة سنة 1430 هـ، سنة 2009م.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1] ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾[2]، ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[3].

وصدق رسول الله– ﷺ– إذ يقول: (لا يلبث الجور بعدي إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره)– رواه الإمام أحمد.

ورحم الله الشيخ حسن البنا (1324 – 1368 هـ، 1906 – 1949م) الذي تنبأ بعودة الإسلام إلى عرش القيادة للحضارة، فقال: (لقد كانت قيادة الدنيا، في وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فورث الغرب

(1) النور: 55

(2) الإسراء: 51

(3) المعارج: 5 – 7

opeikandi.com

القيادة العالمية. وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى، ويجار ويتخبط، فلم تبق إلا أن تمتد يد (شرقية) قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوي المتين، فإذا الدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1] [2].

إنها نهضة الشرق- بالإسلام- التي تلوح بشائرها في الأفق، والتي حلم بها النديم وأرسلان. وكل أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة والمعاصرة، والتي ضرب الغرب مشاريعها- منذ محمد علي باشا (1184 - 1265 هـ، 1770 - 1849م) وعرابي (1257 1329 هـ) (1841 1911 م)، وسعد زغلول (1233 1346 هـ) (1857 1927 م)، وجمال عبد الناصر (1336 - 1390 هـ، 1918 - 1970م) والتي يبدو نجاحها مؤكدًا- إن شاء الله- بعد أن دخل الغرب في مأزقه الحضاري الخانق لأول مرة منذ العصر الحديث. وبعد أن سقطت- في بلادنا- أوهام التقدم وفق نماذج الحداثة الغربية.

---

(1) الأعراف: 43

(2) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا) - رسالة (نحو النور) ص 60 طبعة دار الشهاب - القاهرة - بدون تاريخ.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1].

نعم. (وترجون من الله ما لا يرجون). وعلي الله قصد السبيل. وما النصر إلا من عند الله.

29 **رجب سنة** 1434 **هـ**

8 **يونيه سنة** 2013**م**

دكتور

محمد عمارة

(1) النساء: 104

obeikandi.com